تسهيل

الأصول المنيفة

للإمام أبي حنيفة

تأليف: كمال الدين البياضي

ت: 1097 هـ

اعتنى بها وقسمها إلى فقرات مع حذف العزو إلى المصدر في بداية كل فقرة

إبراهيم الفرجاني

الأصول المنيفة للإمام أبي حنيفة [بتصرف]

وهذه الأصول جمعها مؤلفها: القاضي: كمال الدين أحمد بن الحسن بن سنان الدين البياضي [ت: 1097هـ]، من أصول العقيدة الخمسة التي أجمع عليها علماء الأحناف، ثم أجمع علماء سائر المذاهب بعد ذلك على وليدتها: العقيدة الطحاوية، حيث اعتبروها معبرة عن عقيدة أهل السنة والجماعة، فتبارى في شرحها العلماء من كل مذهب، وتسابق إلى حفظها وفهمها الصغار والكبار من كل مَهْيَع ومشرب.

ولابد من التنبيه هنا على أن الاطلاع على هذا المؤلَّف: الأصول المنيفة، أو: العقيدة الطحاوية، لا يغني عن مطالعة الأصول الخمسة ذاتها والإفادة مما فيها من علم جم وعبارة رائقة وتدرج في الإيضاح والاستدلال.

وأصول العقيدة الخمسة المنسوبة للإمام أبي حنيفة والتي هي أصل العقيدة عند الماتريدية، هي:

1 ـ الوصية في عقيدة أهل السنـــــــة: رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة.

2 ـ رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي: رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة.

3 ـ الفقه الأكبـــــــــــــــــــــــر: رواية حماد بن أبي حنيفة عن أبيه.

4 ـ الفقه الأبســـــــــــــــــــــط: رواية أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي عن أبي حنيفة.

5 ـ رسالة العالم والمتعلـــــــــــم: رواية أبي مقاتل حفص بن سلم السمرقندي عن أبي حنيفة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أما بعد: الحمد لله على إفضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، فهذا ما سئلت جمعه وترتيبه، وتهذيبه عن المكررات وتقريبه، من الأصول المنيفة للإمام أبي حنيفة، جمعتها من نصوص كتبه التي أملاها على أصحابه من: الفقه الأكبر، والرسالة، والفقه الأبسط، وكتاب العالم، والوصية. برواية الأئمة: حماد بن أبي حنيفة، وأبي يوسف الأنصاري، وأبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي، وأبي مقاتل حفص بن مسلم السمرقندي، وألحقت بها عشرين مسألة كلامية من رواية الأئمة، وأربعين حديثا اعتقاديًا من مسانيده العلية، ورتبتها على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، وهي لجميع الأصول حاوية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى عباد الله الصالحين.

المقدمة

1 ـ اعلم أن الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام. والفقه: معرفة النفس مالها وما عليها، وما يتعلق بالاعتقاديات، وهو الفقه الأكبر. ولأن يتفقه الرجل كيف يعبد ربه خير له من أن يجمع العلم الكثير.

2 ـ والعمل تابع للعلم كما أن الأعضاء تتبع البصر، فالعلم مع العمل اليسير أنفع من العمل الكثير مع الجهل؛ ولذلك قال تعالى: ((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)).

3 ـ وأفضل الفقه أن يتعلم الرجل الإيمان بالله تعالى والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة.

4 ـ وأصحاب رسول الله ﷺ إنما لم يدخلوا فيه لأن مثلهم كقوم ليس يحضرهم من يقاتلهم، فلا يتكلفون السلاح، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحل الدماء منا، فلا يسعنا أن لا نعلم مَن المخطئ مِنَّا والمصيب، وأن لا نذب عن أنفسنا وحرمنا، فقد ابتلينا بمن يقاتلنا فلابد لنا من السلاح.

5 ـ مع أن الرجل إذا كف لسانه فيما اختلف فيه الناس وقد سمع ذلك لم يطق أن يكف قلبه؛ لأنه لابد للقلب من أن يكره أحد الأمرين، أو الأمرين جميعًا، فأما أن يحبهما جميعًا وهما مختلفان فهذا لا يكون. وإذا مال القلب إلى الجَوْر أحب أهله وكان منهم، وإذا مال إلى الحق وعرف أهله كان لهم وليًّا.

6 ـ وإذا لم تعرف المخطئ من المصيب لا يضرك في خصلة، ويضرك بعد في خصال غير واحدة: فأما الخصلة التي لا تضرك فإنها أنك لا تؤاخذ بعمل المخطئ. وأما الخصال التي تضرك: فواحدة منها: اسم الجهالة يقع عليك؛ لأنك لا تعرف الخطأ من الصواب، ومن وصف عدلاً ولم يعلم جور من يخالفه فإنه جاهل بالجور والعدل. والثانية: عسى أن ينزل بك من الشبهة ما نزل بغيرك ولا تدري ما المخرج منها؛ لأنك لا تدري

أمصيب أنت أم مخطئ فلا تنزع عنها. والثالثة: لا تدري من يحب في الله ومن يبغض في الله؛ لأنك لا تدري المخطئ من المصيب.

7 ـ واعلم أن أفضل ما عَلِمتم وما تُعَلِّمون الناس: السُّنة. وأنت ينبغي لك أن تعرف من أهلها الذين ينبغي أن يتعلم منه ويعلم، ولعمري ما في شيء باعد من الله عذر لأهله، ولا فيما أحدث الناس وابتدعوا أمر يهتدى به، ولا الأمر إلا ما جاء به القرآن ودعا إليه محمد ﷺ، وكان عليه أصحابه، رضي الله عنهم، حتى تفرق الناس، وأما ما سوى ذلك فمبتدع ومحدث. فما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجساد فمقالات الفلاسفة. عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة.

8 ـ حدثني حماد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من أحدث حدثًا في الإسلام فقد هلك، ومن ابتدع بدعة فقد ضل، ومن ضل ففي النار)). وحدثنا حماد عن إبراهيم عن ابن مسعود أنه كان يقول: شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وروي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((افترقت بنو إسرائيل اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي ثلاثًا وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا السواد الأعظم)). وروي عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني، قال: اذهب فتعلم القرآن ـ ثلاثًا، ثم قال له في الرابعة: ((اقبل الحق ممن جاء به حبيبًا كان أو بغيضًا، وتعلم القرآن ومل معه حيث مال)).

الباب الأول

في معرفة الله والإيمان الإجمالي به

1 ـ حدثني علقمة بن مرثد، عن يحيى بن يعمر، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ إذ دخل علينا رجل حسن اللِّمَّة، منعمًا، نحسبه من رجال البادية، فتخطى رقاب الناس فوقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتؤمن بملائكته وكتبه ورسله ولقائه واليوم الآخر، والقدرخيره وشره من الله تعالى. قال: صدقت، فتعجبنا من تصديقه رسول الله ﷺ مع جهل أهل البادية. فقال: يا رسول الله، ما شرائع الإسلام؟ فقال: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا، والاغتسال من الجنابة. فقال: صدقت، فتعجبنا لتصديقه رسول الله ﷺ كأنه يعلمه، فقال: يا رسول الله، وما الإحسان؟ قال: أن تعمل لله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فقال: صدقت. قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال: نعم، فقال: صدقت. فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها شرائط؛ فهي من الخمس التي استأثر الله بها، فقال: ((إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ)) فقال: صدقت، ثم قَفَّى، فلما توسط الناس لم نره. فقال النبي ﷺ: إن هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم. وقال في رواية الحاكم والحصكفي: وحدثني به حماد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود.

2 ـ فاعلم أن أصل التوحيد وما يصح الاعتقاد عليه يجب أن تقول: آمنت بالله، واليوم الآخر، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره من الله تعالى، والحساب، والميزان، والجنة والنار، وذلك كله حق.

3 ـ لم يفوض الله الأعمال إلى أحد، والناس صائرون إلى ما خلقوا له وإلى ما جرت به المقادير. وإن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. والحساب والميزان والجنة والنار حق كله، إذا استيقن بهذا أحد فقد أقر بجملة الإسلام، وهو مؤمن.

4 ـ ولو أقر بجملة الإسلام في أرض الشرك ولا يعمل شيئًا من الفرائض والشرائع والكتاب ولا يقر بشيء منها، إلا أنه مقر بالله تعالى وبالإيمان فهو مؤمن.

5 ـ ولو لم يبعث الله تعالى للناس رسولاً توجب عليهم معرفته بعقولهم، ويعذرون في الشرائع إلى قيام الحجة. ولا عذر لأحد في الجهل بخالقه مما يرى من خلق السماوات والأرض وخلق نفسه وغيره.

6 ـ وكما يحيل العقل في سفينة مشحونة بالأحمال احتوشتها في لجة البحرأمواج متلاطمة ورياح مختلفة أن تجري مستوية، وليس أحد يجريها ويقودها؛ فكذلك يستحيل قيام هذا العالم على اختلاف أحواله وتغير أموره وأعماله من غير صانع ومحدث وحافظ، وكذلك خروج الجنين من بطن أمه بصورة حسنة ليس من نجم ولا طبع بل من تقدير صانع حكيم. فالعالم يتغير من حال إلى حال، والتغير لابد له من مغير؛ فدل تغيره على وجود مغير له غالب، هو الصانع، كوجود بناء مشيد في عرصة بعد أن لم يكن يدل على وجود بانٍ بناه.

7 ـ ويُعرف الرسول من قبل الله تعالى؛ لأن الرسول وإن كان يدعو إلى الله، لم يكن أحد يعلم بأن الذي يقول الرسول حق، حتى يقذف الله في قلبه التصديق والعلم بالرسول، ولذلك قال الله تعالى: ((إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ)). ولو كانت معرفة الله من قِبَل الرسول لا من قبل الله ولكن المنة على الناس بما عرفهم الله من التصديق بالرسول؛ فلذلك لا ينبغي لأحد أن يقول إن الله يُعْرَف من قِبَل الرسول، بل ينبغي أن يقول: إن العبد لا يعرف شيئًا من الخير إلا من قِبَل الله تعالى.

8 ـ وإذا أشكل على الإنسان شيء من دقائق علم التوحيد فإنه ينبغي له أن يعتقد في الحال ما هو الصواب عند الله تعالى إلى أن يجد عالمًا فيسأله، ولا يسعه تأخير الطلب، ولا يعذر بالتوقف فيه، ويكفر إن وقف.

الباب الثاني

في الصفات الذاتية وما يرجع إليها

1 ـ والله تعالى واحد لا من طريق العدد، ولكن من طريق أنه لا شريك له لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. لا جسم ولا عرض، ولا حد له ولا ضد، ولا ند له، ولا مثل. ولا يشبه شيئًا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه. وهو شيء لا كالأشياء. ومعنى الشيء: الثابت.

2 ـ والله لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته لم يحدث له صفة ولا اسم.

3 ـ وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين. وهي: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام. لا هو ولا غيره.

4 ـ كان الله عالمًا في الأزل بالأشياء قبل كونها، وخلق الأشياء لا من شيء. ويعلم لا كعلمنا، يعلم المعدوم في حال عدمه معدومًا، ويعلم أنه كيف يكون إذا أوجده، ويعلم الموجود في حال وجوده موجودًا، ويعلم أنه كيف يكون فناؤه، ويعلم الله القائم في حال قيامه قائمًا فإذا قعد فقد علمه قاعدًا في حال قعوده، من غير أن يتغير علمه أو يحدث له علم. لم يزل ولا يزال قائمًا بعلمه. والعلم صفته في الأزل.

5 ـ ويقدر لا كقدرتنا، لم يزل ولا يزال قادرًا بقدرته، صفته في الأزل.

6 ـ ويقال للقدري: أرأيت لو شاء الله أن يخلق الخلق كلهم مطيعين كالملائكة، هل كان قادرًا؟ فإن قال: لا، فقد وصف الله بغير ما وصف به نفسه؛ لقوله تعالى: ((وهو القاهر فوق عباده)) وقوله: ((قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ)). وإن قال: قادر. يقال له: أرأيت لو شاء الله أن يكون إبليس مثل جبريل في الطاعة، أما كان قادرًا؟ فإن قال: لا؛ فقد ترك قوله، ووصفه تعالى بغير صفته.

7 ـ ويرى لا كرؤيتنا الأشياء، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا، نحن نتكلم بالآلات من المخارج والحروف، والله متكلم بلا آلة ولا حرف. وصفاته في الأزل غير محدثة ولا مخلوقة، والتغير والاختلاف والأحوال يحدث في المخلوقين. ومن قال إنها محدثة أو مخلوقة أو توقف فيها أو شك فيها؛ فهو كافر.

8 ـ ولا ينبغي لأحد أن ينطق في الله بشيء من ذاته ولكن يصفه بما وصف نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئًا. تبارك الله رب العالمين.

9 ـ والله شاء بالمشيئة، شاء للمؤمنين الإيمان، ولأهل الخير الخير، وشاء للكافرين الكفر وللعاصي المعصية. وأمر الكافرين بالإسلام، وشاء لهم قبل أن يخلقهم أن يكونوا كفارًا ضلالاً، قدر بالمشيئة، وشاء بعلم، وسبقت مشيئته أمره.

10 ـ والأمر أمران: إذا أمر شيئًا كان، وأمْر الوحي. وهو ليس من إرادته، وليس إرادته من أمره. وتصديق ذلك قول إبراهيم لابنه: ((إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ)). ولم يقل: ستجدني صابرًا من غير ـ إن شاء الله ـ فكان ذلك أمره تعالى، ولم يكن من إرادته تعالى ذبحه.

11 ـ ومن عمل بمشيئة الله وطاعته وبما أمر به فقد عمل برضاه وعدله. ومن عمل بمشيئة الله وبغير ما أمر به فلم يعمل برضاه، لكن عمل بمعصيته، ومعصيته غير رضاه. ويعذب الله العباد على ما لا يرضى لأنه يعذبهم على الكفر والمعاصي ولا يرضى به، ولكن يرضى أن يعذبهم وينتقم منهم بتركهم الطاعة وأخذهم بالمعصية. ويعذبهم على ما يشاء لهم لأنه يعذبهم على الكفر ورضي أن يخلق الكفر، ولم يرض الكفر بعينه. قال الله تعالى: ((وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ))، يشاء لهم ولا يرضى به؛ لأنه خلق إبليس وكذلك الخمر والخنزير، ورضي الله بخلقهن ولم يرض أنفسهن؛ لأنه لو رضي الخمر بعينها لكان مَن شربها فقد شرب ما رضي الله تعالى، ولكن لا يرضى الخمر ولا الكفر ولا إبليس ولا أفعاله. وأمر الله بشيء ولم يشأ خلقه، وشاء شيئًا ولم يأمر به خلقه، أمر الكافر بالإسلام ولم يشأ، وشاء الكفر للكافر ولم يأمر به. رضي الله شيئًا ولم يأمر به كالعبادات النافلة. وما أمر الله بشيء ولم يرض به؛ لأن كل شيء أمر به فقد رضي به.

12 ـ ولا يستطيع أحد أن يجري في ملك الله ما لم يقض. وإذا أراد من عبد أن يكفر لا يقال أساء وظلم؛ لأنه إنما يقال لمن خالف ما أمره، وقد عرَّفَ عباده ما طلب منهم من الإيمان به.

13 ـ والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، ووحيه وتنزيله على رسول الله ﷺ، وهو صفته على التحقيق مكتوب في المصاحف مقروء بالألسنة محفوظ في الصدور غير حال فيه، والحبر والكاغَد والكتابة والقراءة مخلوقة؛ لأنها أفعال العباد. فمن قال بأن كلام الله مخلوق فهو كافر بالله العظيم. والحروف والكلمات والآيات دلالات القرآن لحاجة العباد إليها، والله تعالى معبود لا يزال عما كان. وكلامه تعالى مقروء محفوظ من غير مزايلة عنه. وما ذكر الله تعالى عن موسى عليه السلام وغيره وفرعون وإبليس؛ فإن ذلك كلام الله تعالى إخبارًا عنهم. وإن كلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، وكلام الله تعالى قائم بذاته، ومعناه مفهوم هذه الأشياء. وكان الله تعالى متكلمًا ولم يكن كلم موسى وسمع موسى كلام الله كما في قوله تعالى: ((وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا))، كلم موسى بكلامه الذي هو صفة له في الأزل. وخصه بكلامه إياه حيث لم يجعل بينه وبين موسى رسولاً.

14 ـ وآيات القرآن في معنى الكلام كلها مستوية في الفضيلة، إلا أن لبعضها فضيلة الذكر وفضيلة المذكور مثل آية الكرسي؛ لأن المذكور فيها جلال الله تعالى وعظمته وصفاته، فاجتمعت فضيلتان: فضيلة الذكر وفضيلة المذكور. وأما في قصة الكفار: فضيلة الذكر فحسب، وليس للمذكور فضيلة، وهم الكفار. وكذلك الأسماء والصفات كلها مستوية في العظم والفضل، لا تفاوت بينها.

15 ـ وله تعالى يد ووجه ونفس بلا كيف كما ذكر الله تعالى في القرآن. وغضبه ورضاه وقضاؤه وقدره من صفاته بلا كيف، ولا يقال غضبه عقوبته ورضاه ثوابه.

16 ـ والله على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة واستقرار عليه.

17 ـ وكل شيء ذكره العلماء بالفارسية من صفات الباري تعالى فجائز القول به، ذكر اليد يجوز بالفارسية، ويجوز أن يقال (بروى خداي) بلا تشبيه. ولا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين، ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف. ((يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ)) ليست كأيدي خلقه ليست بجارحة وهو خالق الأيدي، ووجهه ليس كوجوه خلقه وهو خالق كل الوجوه، ونفسه ليست كنفس خلقه، وهو خالق كل النفوس، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

18 ـ هو حافظ العرش وغير العرش من غير احتياج، فلو كان محتاجًا إليه لما قدر على إيجاد العالم وتدبيره وحفظه كالمخلوقين. ولو كان في مكانه محتاجًا إلى الجلوس والقرار، فقبل خلق العرش أين كان الله؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

19 ـ كان الله ولا مكان، وكان قبل أن يخلق الخلق، كان ولم يكن أين ولا خلْق ولا شيء، وهو خالق كل شيء. وإنه تعالى يدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء، وعليه ما ورد في الحديث أن رجلًا أتى النبي ﷺ بأمة سوداء فقال: وجب علي عتق رقبة مؤمنة فتجزيني هذه؟ فقال لها النبي ﷺ: أمؤمنة أنت؟ قالت: نعم. فقال: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال: أعتقها فإنها مؤمنة. فمن قال لا أعرف ربي أفي السماء أم في الأرض؟ فهو كافر. كذا من قال إنه على العرش استوى، ولا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟

20 ـ ولقاء الله تعالى لأهل الجنة حق بلا كيفية ولا تشبيه ولا جهة. يراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم، ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة. حدثني إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم البجلي، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: سترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تَضَامُّون في رؤيته.

21 ـ وليس قرب الله ولا بعده من طريق طول المسافة وقصرها ولا على معنى الكرامة والهوان. والمطيع قريب منه تعالى بلا كيف، والعاصي بعيد عنه بلا كيف. القرب والإقبال يقع على المناجِى، وكذا جواره تعالى في الجنة والوقوف بين يديه والرؤية بلا كيف.

الباب الثالث

في الصفات الفعلية وما يرجع إليها

1 ـ فالفعلية: التخليق والإنشاء والإبداع والصنع، وغير ذلك. والله تعالى لم يزل خالقًا بتخليقه، والتخليق صفته في الأزل، وفاعلًا به، والفعل صفته في الأزل. فكان الله خالقًا قبل أن يخلق، ورازقًا قبل أن يرزق، وفعله صفته في الأزل. والفاعل هو الله، وفعل الله غير مخلوق، والفعل مخلوق.

2 ـ والله متفضل على عباده وعادل على عباده يعطي أضعاف ما يستوجب العبد تفضلًا منه تعالى، وقد يعاقب العبد على الذنب عدلاً منه، وقد يغفر تفضلًا منه ويهدي من يشاء فضلًا منه، ويضل من يشاء عدلاً منه. وإضلاله خذلانه. وتفسير الخذلان: أن لا يوفق العبد على ما يرضاه منه، وهو عدل منه، وهي عقوبة المخذول على المعصية.

3 ـ والله الغني، لا يطلب الله عن احتياج من العباد شيئًا وإنما هم يطلبون منه. وحق الله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ فإذا فعلوا ذلك فحقهم عليه أن يغفر لهم ويثيبهم عليه.

4 ـ لو عذب الله أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، أليس دلهم على الطاعة وألهمهم إياها وصبرهم عليها؟ أما هذه نعم أنعم الله بها عليهم؟ فلو طالبهم بشكر هذه النعم ما قدروا عليها وقصروا، وكان له أن يعذبهم بتقصير الشكر وهو غير ظالم لهم.

5 ـ خلق الخلق سليمًا من الكفر والإيمان ثم خاطبهم وأمرهم ونهاهم، فكفر من كفر بفعله وإنكاره وجحوده، وهو بخذلان الله تعالى إياه، وآمن من آمن بفعله وإقراره وتصديقه كل ذلك بتوفيق الله إياه ونصرته له. ولا يجوز أن نقول: إن الشيطان يسلب الإيمان من عبده المؤمن قهرًا وجبرًا، ولكن نقول: العبد يدع الإيمان، فإذا تركه فحينئذ يسلبه منه الشيطان.

6 ـ والله خالق العباد ورازقهم ومميتهم لقوله تعالى: ((ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ)). وحدثني يزيد بن عبد الرحمن الأزدي، عن عبدالله بن مسعود، عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((تكون النطفة أربعين ليلة، ثم تكون مضعة أربعين ليلة، ثم ينشئه الله تعالى خلقًا، فيقول الملك: أي رب أذكر أم أنثى؟ أسعيد أم شقي؟ ما أجله؟ ما رزقه؟ وما أثره؟ فيكتب ما يريد الله به؛ فالسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه)). فيُؤَوَّل ما روى ثوبان رضي الله تعالى عنه، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)).

7 ـ والكسب وجمع المال من الحلال حلال، وجمع المال من الحرام حرام.

8 ـ والاستطاعة مع الفعل. والاستطاعة التي يعمل بها العبد المعصية هي بعينها تصلح لأن يعمل بها الطاعة. فليس [ما يستطاع به] قبل الفعل ولا بعده لأنه لو كان قبل الفعل لكان العبد مستغنيًا عن الله وقت الحاجة، وهذا خلاف حكم النص؛ لقوله تعالى: ((وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ)). والله خلق الخلق ولم يكن لهم طاقة لأنهم ضعفاء عاجزون. ولو كان بعد الفعل لكان من المحال؛ لأنه حصول بلا استطاعة وطاقة.

9 ـ والله لا يكلف العباد ما لا يطيقون ولا أراد منهم ما لا يعلمون، ولا يعاقبهم بما لم يكن منهم أن يعلموا، ولا يسألهم عما لم يعلموا، ولا رضي لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم.

10 ـ والله يعلم ما نحن فيه؛ يعلم من يكفر في حال كفره كافرًا، وإذا آمن بعد ذلك علمه مؤمنًا في حال إيمانه وأحبه.

فصل

في القضاء والقدر وخلق أفعال العباد

11 ـ والعبد مع أعماله وإقراره ومعرفته مخلوق، فلما كان العبد مخلوقًا فأولى أن تكون أفعاله مخلوقة.

12 ـ ولم يجبر أحدًا من خلقه على الكفر ولا على الإيمان، ولا خلقه مؤمنًا ولا كافرًا، ولكن خلقهم أشخاصًا، والإيمان والكفر فعل العباد، وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة، والله خالقها.

13 ـ وذلك الذي نقول قولاً متوسطًا بين القولين؛ [أيًّا مَّال مِلتُ معه]، كما قال محمد بن علي رضي الله تعالى عنه: لا جبر ولا تفويض ولا تسليط.

14 ـ والعبد معاقب في صرف الاستطاعة التي أحدثها الله فيه، وأُمِر بأن يستعملها في الطاعة دون المعصية.

15 ـ والأعمال ثلاثة: فريضة، وفضيلة، ومعصية. فالفريضة: بأمر الله تعالى ومشيئته ومحبته ورضائه، وقضائه وقدره، وحكمه وعلمه وتوفيقه، وكتابته في اللوح المحفوظ. والفضيلة: ليست بأمر الله تعالى، ولكن بمشيئته ومحبته ورضائه، وقدره وحكمه وعدله وتوفيقه، وتخليقه، وكتابته في اللوح المحفوظ. والمعصية: ليست بأمر الله تعالى، ولكن بمشيئته لا بمحبته، وقضائه لا برضاه، وبتقديره لا بتوفيقه، وبخذلانه وعلمه وكتابته في اللوح المحفوظ. فتقدير الخير والشر كله من الله تعالى.

16 ـ قدر الأشياء قضاء، ولا يكون في الدنيا والآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره؛ لقوله تعالى: ((إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ)) فما بقي في العالم شيء إلا وهو داخل فيه. قال تعالى: ((فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم

مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ))، وقال: ((يضل من يشاء ويهدي من يشاء))، وقال: ((وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ))، وقال: ((وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ))، وقال: ((وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ))، وقال تعالى: ((وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ))، وقال تعالى: ((وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ)) أي: يُقَدِّرُ الله. وقال شعيب عليه السلام: ((وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ))، وقال نوح عليه السلام: ((وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ))، وقال تعالى: ((قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ))، وقال تعالى: ((كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ)). وحدثنا حماد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يومًا، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكًا يكتب عليه رزقه وأجله وشقي أم سعيد. والذي لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل من أعمال أهل الجنة، فيموت فيدخلها)). وقال في رواية محمد والحارثي والأنصاري: وحدثني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: ((يجيء قوم يقولون لا قدر، فإذا لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، وإن مرضوا فلا تعودهم، وإن ماتوا فلا تشهدوا جنازتهم، فإنهم شيعة الدجال، ومجوس هذه الأمة، حقًّا على الله تعالى أن يلحقهم بهم)). وحدثني سالم، عن أبيه عبد الله بن عمر، عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((لعن الله القدرية، ما من نبي بعثه الله تعالى قبلي إلا حذر أمته منهم ولعنهم)). وحدثني به علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه عنه عليه الصلاة والسلام، وحدثنا الهيثم، عن عامر الشعبي، عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، أنه خطب الناس على منبر الكوفة فقال: ((ليس منا من لم يؤمن بالقدر خيره وشره)). وحدثني موسى بن أبي كثير، عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: آية القدر في كتاب الله تعالى علمها من شاء وجهلها من شاء، وهي قوله تعالى: ((إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ))، وقوله تعالى: ((فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ (161) مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ (162) إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ)).

17 ـ فلو زعم أحد أن تقدير الخير والشر من غيره تعالى لصار كافرًا بالله تعالى وبطل توحيده، قال الله تعالى: ((وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ (53))).

18 ـ كتبه في اللوح المحفوظ ولكن كتبه بالوصف لا بالحكم. أمر القلم بأن يكتب، فقال القلم: ماذا أكتب يا رب؟ فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. حدثني أبو الزبير، عن جابر، عن عبد الله الأنصاري أن سراقة بن مالك الأنصاري، قال: يا رسول الله حدثنا عن ديننا كأنا ولدنا له، أنعمل لشيء جرت به المقادير وجفت به الأقلام، أو لشيء مستقبل؟ فقال النبي ﷺ: ((فيما جرت به المقادير وجفت به الأقلام)) قال: ((ففيم العمل؟)) فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له. ثم قال: ((فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (5) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (6) فَسَنُيَسِّرُهُۥ

لِلۡيُسۡرَىٰ (7) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (8) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (9) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ)). وحدثني عبد العزيز بن رفيع، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ما نفس إلا وقد كتب الله مدخلها ومخرجها وما هي لاقية. فقال رجل من الأنصار: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل الشقاء فيسروا لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فيسروا لعمل أهل السعادة)). فقال الأنصاري: الآن حق العمل.

19 ـ وإن قال القدري: المشيئة إليَّ: إن شئت آمنت، وإن شئت لم أؤمن. قال الله تعالى: ((فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر))، وقال تعالى: ((وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى))، وقال تعالى: ((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه))، وقال: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون))، ولم يجبر عباده على ذنب ثم يعذبهم عليه؟ ولو زنا وشرب وقذف تجري الحدود عليه، ولم يشاء أن يُفْتَرى عليه والله سبحانه يقول: هو أهل التقوى وأهل المغفرة، فهو ليس بأهل للكفر وغير مريد له. **يقال له:** قوله تعالى: ((فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)) وعيد؛ فقد قال: ((وما يذكرون إلا أن يشاء الله))، وقال: ((يحول بين المرء وقلبه))، أي: بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان. وقوله تعالى: ((وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)) أي: بصرناهم وبيَّنَّا لهم. وقوله تعالى: ((وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه)) أي: أَمَرَ ربك. وقوله تعالى: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) أي: ليوحدون. ويقال له: هل يطيق العبد لنفسه ضرًّا أو نفعًا؟ فإن قال: لا، لأنهم مجبورون في الضر والنفع ما خلا الطاعة والمعصية. يقال له: هل خلق الله الشر؟ فإن قال: نعم، فقد خرج من قوله. وإن قال: لا، كفر؛ لقوله تعالى: ((قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ (1) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (2))) أخبر أن الله تعالى خلق الشر. والحدود تجري بأمر الله تعالى لأنه أمر بالحدود فلا يترك ما أمر الله تعالى به، ولأنه لو قطع زيد يد غلامه كان بمشيئة الله تعالى وذمه الناس، ولو أعتقه حمدوه عليه، وكلاهما وجدا بمشيئة الله تعالى، وقد عمل بمشيئة الله، لكن من عمل بمشيئة الله المعصية فإنه ليس بها رضا ولا عَدَلَ في فعله. **ويقال له:** الفرية على الله من الكلام أم لا؟ فإن قال: نعم، يقال: من أنطق الكافر؟ فإن قال: الله تعالى، خصموا أنفسهم؛ لأن الفرية من المنطق ولو لم يشأ الله لما أنطقهم بها. وأهل لما يشاء من الطاعة وليس بأهل لما يشاء من المعصية. وإن قال: الرجل إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وإن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وإن شاء شرب وإن شاء لم يشرب. يقال له: هل حكم الله على بني إسرائيل أن يعبروا البحر وقدر على فرعون الغرق؟ فإن قال: نعم، يقال له: هل يقع من فرعون أن لا يسير في طلب موسى وأن لا يغرق وأصحابه؟ فإن قال: نعم، فقد كفر. وإن قال: لا، نقض قوله السابق.

20 ـ والقضاء على وجهين: أحدهما: أمر وحي. والآخر: خلق. فإنه يقضي عليهم ويقدر لهم الكفر ولم يأمرهم به، بل وينهاهم عنه. [ويقال للقدري]: هل علم الله في سابق علمه أن هذه الأشياء تكون على ما هي عليه أم لا؟ فإن قال: لا، فقد كفر، وإن قال: نعم، قيل له: أفأراد أن تكون كما علم أو أراد أن تكون بخلاف ما علم؟ فإن قال: أراد أن تكون كما علم فقد أقرأنه أراد من المؤمن الإيمان ومن الكافر الكفر، وإن قال: بخلاف ما علم. فقد جعل

ربه متمنيًا متحسرًا؛ لأن من أراد أن لا يكون فكان، أو أراد أن يكون فلم يكن، فهو متمنٍ متحسرٌ. ومن وصف ربه متمنيًا متحسرًا فهو كافر.

21 ـ ولم يكفر هذا المستدل لأنه لم يَرُدَّ الآية وإنما أخطأ في تأويلها ولم يَرُدَّ تنزيلها. ولذا لا يكفر من قال: إن أصابتني مصيبة أهي مما ابتلاني الله بها أو هي مما اكتسبت وليست هي مما ابتلاني الله بها؟ لأن الله تعالى قال: ((وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)) أي: بذنوبكم وأنا قدرته عليكم. إلا أنه أخطأ في التأويل.

فصل

في النبوات والفرق بين آيات الأنبياء وغيرها من خوارق العادات

22 ـ والآيات للأنبياء حق. حدثني الهيثم بن حبيب الصيرفي، عن عامر الشعبي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين.

23 ـ وخبر المعراج حق، ومن رده فهو مبتدع ضال.

24 ـ والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم منزهون عن الصغائر والكبائر والكفر.

25 ـ ومحمد ﷺ حبيبه ورسوله ونبيه وصفيه وثقته، لم يعبد الصنم، ولم يشرك بالله طرفة عين قط، ولم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط.

26 ـ ولم يأمر بشيء نهى الله تعالى عنه، ولم يقطع شيئًا وصله الله، ولا وصف أمرًا وصف الله ذلك الأمر بغير ما وصف به النبي عليه والصلاة والسلام.

27 ـ وكان موافقًا لله تعالى في جميع الأمورلم يبتدع ولم يتقول على الله غير ما قال، ولا كان من المتكلفين؛ ولذلك قال الله تعالى: ((من يطع الرسول فقد أطاع الله))؛ لأنه جعل الرسول قائدًا لجميع خلقه من الجن والإنس أمينًا على فرائضه وسننه؛ ولذلك قال الله تعالى: ((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)).

28 ـ وقد كانت منهم زلَّات وخطايا.

29 ـ والرسل صلوات الله عليهم أجمعين لم يكونوا على أديان مختلفة، ولم يكن كل منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذي كان قبله؛ لأن دينهم كان واحدًا. وكان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه وينهى عن شريعة الرسول الذي كان قبله؛ لأن شرائعهم كانت كثيرة ومختلفة، ولذلك قال تعالى: ((لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ)). وأوصاهم جميعًا بإقامة الدين وهو التوحيد أن لا يتفرقوا فيه، وقال تعالى:

((وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ))، وقال تعالى: ((لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ)). أي: لا تبديل لدين الله، فالدين لم يبدل ولم يحول ولم يغير، والشرائع قد بدلت وغيرت؛ لأنه رُبَّ شيء قد كان حلالاً لأناس قد حرمه الله على آخرين، ورُبَّ أمْر أمَرَ الله به أناسًا ونهى عنه آخرين، فالشرائع كثيرة مختلفة، والشرائع هي الفرائض.

30 ـ والكرامات للأولياء. وأما الذي يكون لأعدائه مثل إبليس وفرعون والدجال مما روي في الأخبار لا نسميها آيات ولا كرامات، ولكن نسميها قضاء حاجاتهم؛ وذلك لأن الله تعالى يقضي حاجات أعدائه استدراجًا لهم وعقوبة عليهم فيغترون فيزدادون طغيانًا وكفرًا، وذلك كله جائز.

فصل

في حقيقة الإيمان والإسلام

31 ـ والإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان.

32 ـ والإقرار وحده لا يكون إيمانًا لأنه لو كان إيمانًا لكان المنافقون كلهم مؤمنين، وكذا المعرفة وحدها لا تكون إيمانًا لأنها لو كانت إيمانًا لكان أهل الكتاب كلهم مؤمنين، وقد قال الله تعالى في حق المنافقين: ((والله يشهد إن المنافقين لكاذبون))، وقال تعالى في حق أهل الكتاب: ((الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)).

33 ـ فالإيمان هو التصديق والمعرفة واليقين والإقرار والإسلام، بأن يقر بأن الله تعالى ربه، ويتيقن بأن الله ربه، ويعرف بأن الله ربه، فهذه أسماء مختلفة ومعناها واحد هو الإيمان.

34 ـ والإسلام هو التسليم والانقياد لأمر الله تعالى.

35 ـ فمن طريق اللغة يفرق بين الإيمان والإسلام ولكن لا يكون إيمان بلا إسلام ولا إسلام بلا إيمان، وهما كالظهر مع البطن.

36 ـ وأما الدين فهو اسم واقع على كل من الإيمان والإسلام والشرائع كلها.

37 ـ ومستقر الإيمان القلب، وفروعه في الجسد. فإن قيل: لو كان في أصبعك فإن قطعت فأين يذهب الإيمان منها؟ يقال: إلى القلب.

38 ـ والناس في التصديق على ثلاثة منازل: منهم من يصدق بالله وبما جاء منه بقلبه ولسانه، ومنهم من يصدق بقلبه ويكذب بلسانه، ومنهم من يصدق بلسانه ويكذب بقلبه؛ فمن صدق بقلبه ولسانه فهو عند الله وعند الناس مؤمن، ومن صدق بقلبه وكذب بلسانه قد يكون عند الله مؤمنًا وعند الناس كافرًا، وذلك بأن الرجل يكون مؤمنًا بالله ويظهر الكفر بلسانه في حال التَقِيَّة فيسميه من لا يعرف أنه يتقي كافرًا، وهو عند الله مؤمن.

39 ـ وإن عرف الله وصدق به ومات قبل أن يقر بلسانه مع إمكانه فهو كافر؛ لأن الله جعل الإيمان في كتابه بجارحة القلب واللسان، فقال: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا} إلى قوله: {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا}، وقال تعالى: {فألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها}، وقال: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم}، وقال: {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}، فلم يجعلهم مؤمنين مع استيقانهم. وقال النبي ﷺ: ((يخرج من النار من قال لا إله إلا الله)). فلم يجعل الفلاح والخروج من النار بالمعرفة دون القول.

40 ـ ومن صدق بلسانه وكذب بقلبه كان عند الله كافرًا وعند الناس مؤمنًا؛ لأن الناس لا يعلمون ما في قلبه، وعليهم أن يسموه مؤمنًا بما أظهر لهم من الإقرار بهذه الشهادة وليس لهم أن يتكلفوا علم القلوب، والله يسمي الناس مؤمنين وكفارًا بما في القلوب؛ لأنه تعالى يعلم ما في القلوب، ونحن نسميهم مؤمنين وكفارًا بما يظهر لنا من ألسنتهم من التصديق والتكذيب والزي والعبادة. ولذلك كان المسلمون يسمون المنافقين على عهد رسول الله ﷺ مؤمنين بما يظهرون لهم من الإقرار وهم عند الله كفار بما في قلوبهم من التكذيب والإنكار.

41 ـ والكفر هو الإنكار والجحود. والنفاق اليوم هو النفاق الأول، والكفر اليوم هو الكفر الأول، كما أن الإسلام اليوم هو الإسلام الأول.

42 ـ والنفاق الأول إنما كان التكذيب والجحود بالقلب وإظهار التصديق والإقرار باللسان، وكذلك هو اليوم فيمن كان. وقد نعتهم الله تعالى في كتابه فقال: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله} فقال الله تعالى ردًّا عليهم وتكذيبًا لهم: {والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون}، وليس تكذيبهم بأن ما قالوا كذب ولكن إنما كذبهم بأنهم ليسوا في الإقرار والتصديق كما يظهرون بألسنتهم.

43 ـ وإنما كلفنا ربنا أن نسمي الناس مؤمنين ونحبهم ونبغضهم على ما يظهر لنا منهم، والله أعلم بالسرائر.

44 ـ وقد يجتمع المحبة والبراءة في إنسان واحد يعمل صالحًا وسيئًا، فنحبه على العمل الصالح ونكرهه ونتبرأ على السيء.

45 ـ وهكذا أمر الله الكرام الكاتبين أن يكتبوا ما يظهر لهم من الناس وليسوا من القلوب بسبيل؛ لأن علم القلوب لا يعلمه أحد إلا الله تعالى أو رسول يوحى إليه.

46 ـ فمن ادعى علم القلوب بغير وحي فقد ادعى علم رب العالمين، ومن زعم أنه يعلم من القلوب وغير القلوب ما يعلم رب العالمين فقد أتى بعظيم واستوجب النار مع الكفار.

47 ـ أخرج ذرية آدم من صلبه فجعلهم عقلاء فخاطبهم فأقروا بربوبيته فكان ذلك منهم إيمانًا، فهم يولدون على تلك الفطرة، فمن كفر بعد ذلك فقد بدل وغير، ومن آمن فقد ثبت عليه وداوم.

48 ـ فالناس على ثلاثة أصناف: المؤمن المخلص في إيمانه، والكافر الجاحد في كفره، والمنافق المداهن في نفاقه. والله تعالى فرض على المؤمن العمل وعلى الكافر الإيمان وعلى المنافق الإخلاص؛ لقوله تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم} يعني: أيها المؤمنون أطيعوا، وأيها الكافرون آمنوا، وأيها المنافقون أخلصوا.

49 ـ وإنما يكونون مؤمنين بمعرفتهم وتصديقهم بالرب جل وعلا، ويكونون كفارًا بإنكارهم للرب تعالى. فأما إذا أقروا للرب بالعبودية، وصدقوا بوحدانيته وبما جاء منه، ولم يعلموا ما اسم الإيمان واسم الكفر؛ فإنهم لا يكونون بهذا كفارًا بعد أن يعلموا أن الإيمان خير والكفر شر.

50 ـ ومن وصف التوحيد وجحد بمحمد عليه السلام أو أراد انتقاصه فهو كافر بالله؛ لأن من كفر بالله كفر بمحمد. وليس من قبل كفره بمحمد كفره بالله. قال الله تعالى: {وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون}، وقال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا}.

51 ـ ومن آمن بجميع ما يؤمَن به إلا أنه قال: لا أعرف موسى وعيسى أمرسَلان هما أم غيرُ مرسَلَيْن؟ فهو كافر. وكذا من أنكر شيئًا من خلقه فقال: لا أدري من خالق هذا؟ فإنه يكفر؛ لقوله تعالى: {الله خالق كل شيء} فكأنه قال: له خالق غير الله. وكذلك لو قال: لا أعلم أن الله فرض عليَّ الصلاة والصيام والزكاة، فإنه قد كفر؛ لقوله تعالى: {أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}، ولقوله تعالى: {كتب عليكم الصيام}، ولقوله تعالى: {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون}. فإن قال: أؤمن بهذه الآية ولا أعلم تأويلها ولا تفسيرها فإنه لا يكفر؛ لأنه مؤمن بالتنزيل ومخطئ في التفسير. فإن قال: لا أعرف الكافر، فهو مثله. ومن قال: لا أدري أين مصير الكافر في الجنة أو في النار؟ فهو جاحد لكتاب الله، وهو كافر؛ لقوله تعالى: {والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا}، وقال: {ولهم عذاب الحريق}، وقال: {ولهم عذاب شديد}، وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: من لم ينزل الكفار منزلتهم من النار فهو مثلهم.

52 ـ وأما من وحد الله تعالى وآمن بما جاء من عند الله وشهد على نفسه بالكفر سميته مؤمنًا وإن سمى نفسه كافرًا، ليس ينبغي لي أن أحقق كذبه على نفسه. وكذا من شهد عليَّ بالكفر وتبرأ من ديني بزعم أنه ليس دين الله لا أسميه كافرًا؛ لأنه إنما يكذب عليَّ، ولكن أسميه كاذبًا، ولا يحل لي أن أكذب عليه لكذبه علي؛ لأن الله

تعالى قال: {وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ} أي: لا يحملنكم عداوة قوم أن تتركوا العدل فيهم. وإن تبرأ من الله أو دينه فقد كفر.

53 ـ وكفر الكفار وجهالتهم بالرب عز وجل وإنكارهم ونعوتهم وصفاتهم وعباداتهم كثيرة مختلفة. وتعرف ذلك بأنك لا تعبد موصوفهم ولا معبودهم؛ لأنهم يصفون الثلاثة والاثنين ويثبتون الشريك وإنما يعبدون الذي يصفونه، وأنت تصف الواحد وتعبد الواحد، فمعبودك غير معبودهم. ولذلك قال الله تعالى: {قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ (1) لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ (2) وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (3)}، وأنهم يقولون ربنا الله، وهم في ذلك لا يعرفونه، لقوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ} يقول تعالى: أكثرهم يقول هذا القول بغير علم، قد سمعوا اسم الله تعالى من المؤمنين وهم يقولون ما سمعوا من غير أن يعرفوه؛ ولذلك قال الله تعالى: {فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون}.

54 ـ والمؤمن مؤمن حقًّا والكافركافر حقًّا، وليس في الإيمان شك كما أنه ليس في الكفر شك؛ لقوله تعالى: [أولئك هم المؤمنون حقًّا]، وقوله: [أولئك هم الكافرون حقًّا].

55 ـ فيبقى أن يقول أنا مؤمن حقًّا، ولا يشك في إيمانه؛ لحديث حارثة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا. قال النبي ـ عليه السلام ـ : انظر ماذا تقول فإن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا حتى أظمأت نهاري وأسهرت ليلي فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار حين يتعادون فيها. فقال رسول الله ﷺ: أصبت فالزم، أصبت فالزم. ثم قال: من سره أن ينظر إلى رجل نور الله قلبه فلينظر إلى حارثة. ولحديث الحارث: حدثني حماد أن الحارث بن مالك قدم الكوفة إلى عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه فقال له: إنك لمؤمن. قال الحارث: نعم إني لمؤمن. قال: فتقول: إنك من أهل الجنة. قال الحارث: رحم الله معاذًا، فإنه أوصاني أن أحذر زلة العالم ولا آخذ بحكم المنافق. قال: فهل من زلة رأيت؟ فقال: نشدتك بالله أليس النبي ﷺ كان والناس يومئذ على ثلاث فرق: مؤمن في السر والعلانية، وكافر في السر والعلانية، ومنافق في السر. فمن أي الثلاثة أنت؟ قال: أما أنا فإذ نشدتني بالله فإني مؤمن في السر والعلانية. قال: فلم لمتني حيث قلت إني لمؤمن. قال: أجل هذه زلتي فادفنوها عليَّ، فرحم الله معاذًا. وكنا مع علقمة عند عطاء بن أبي رباح فسأل علقمة رحمه الله: فقال: يا أبا محمد، إن ببلادنا قومًا لا يثبتون لأنفسهم الإيمان ويكرهون أن يقولوا أنا مؤمن. فقال: ومالهم لا يقولون! قال: يقولون إنا إذا أثبتنا لأنفسنا الإيمان جعلنا أنفسنا من أهل الجنة. قال: سبحان الله، هذا من خدع الشيطان وحبائله وحيله. ألجأهم إلى أن دفعوا أعظم منَّة لله عليهم وهو الإسلام، وخالفوا فيه رسول الله ﷺ. رأيت أصحاب رسول الله يثبتون الإيمان لأنفسهم ويذكرون ذلك عن رسول الله ﷺ.

56 ـ ومن قال: أنا مؤمن إن شاء الله. أو قيل له: أمؤمن أنت؟ فقال: الله أعلم. فهو شاك في إيمانه وليس بمنافق. فيقال له: قال الله تعالى: [إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا]، وقال: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ]، فإن كنت مؤمنًا فصل عليه واسْعَ للصلاة. ومن يسأل: أمسلم أنت؟ فيقول: لا أدري. يقال له: قولك لا أدري، أعدل أم جور؟ فإن قال: عدل. يقال: أرأيت ما كان في الدنيا عدلاً أليس في الآخرة عدلاً؟ فإن قال نعم. يقال له: أتؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير وبالقدر خيره وشره من الله تعالى؟ فإن قال نعم. يقال له: مؤمن أنت. فإن قال: لا أدري. فقل له لا دريت ولا فهمت ولا أفلحت.

57 ـ فإن قالوا: فأنت عند الله مؤمن؟ فقل: إني بعلمي أعلم أني مؤمن ولا أعزم على الله في علمه. وأقول كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما قال له ربه: أو لم تؤمن؟ قال: بلى. وقال تعالى: [ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه].

58 ـ والعمل غير الإيمان، والإيمان غير العمل. فإن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام، فدعاهم إلى أن يشهدوا أنه لا إله إلا الله وحده والإقرار بما جاء به من الله تعالى. وكان الداخل في الإسلام مؤمنًا بريئًا من الشرك، حرام ماله ودمه، له حق المسلمين وحرمتهم. وكان التارك لذلك حين دعا إليه كافرًا بريئا من الإيمان حلال ماله ودمه، لا يقبل منه إلا الدخول في الإسلام أو القتل؛ إلا ما ذكر الله تعالى في أهل الكتاب من إعطاء الجزية. ثم نزلت الفرائض بعد ذلك على أهل التصديق، وكان الأخذ بها عملًا مع الإيمان؛ ولذلك يقول الله عزوجل: [الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة]، وقال: [ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا] وأشباه ذلك من القرآن. فلم يكن المضيع للعمل مضيعًا للتصديق، وقد أصابَ التصديق بغير عمل. ولو كان المضيع للعمل مضيعًا للتصديق انتقل من اسم الإيمان وحرمته بتضبيعه العمل إذا كان. كما لو أن الناس ضيعوا التصديق انتقلوا بتضييعهم من اسم الإيمان وحرمته وحقه ورجعوا إلى حالهم التي كانوا عليها من الشرك. ومما يعرف به اختلافهما أن الناس لا يختلفون في التصديق ولا يتفاضلون فيه، وقد يتفاضلون في العمل وتختلف فرائضهم.

59 ـ ولأنه لو كان العمل بجميع ما أمر الله تعالى به والكف عن جميع ما نهى الله عنه دينه، لكان كل من ترك شيئًا من أمر الله تعالى أو ركب شيئًا مما نهى الله عنه تاركًا لدينه ولكان كافرًا، وإذا صار كافرًا ذهب الذي بينه وبين المؤمنين من المناكحة والموارثة واتباع الجنائز وأكل الذبائح وأشباه هذا؛ لأن الله أوجب ذلك كله بين المؤمنين من أجل الإيمان الذي به حرم الله تعالى دماءهم وأموالهم إلا بحدث. وإنما أمر الله تعالى المؤمنين بالفرائض بعدما أقروا بالدين، فقال تعالى: [قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة]، وقال تعالى: [يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام]، وقال تعالى: [يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص]، وقال تعالى: [يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله] وأشباه هذا. فلو كانت الفرائض هي الإيمان لم يسمهم مؤمنين حتى يعملوا بها. وقد فصَل الله

تعالى الإيمان من العمل، فقال تعالى: [الذين آمنوا وعملوا الصالحات]، وقال: [بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن] أي: مع إيمانه، وقال: [ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن] فجعل الإيمان غير العمل. فالمؤمنون من قِبَلِ إيمانهم بالله يصلون ويزكون ويصومون ويحجون ويذكرون الله وليس من قبل صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم بالله يؤمنون؛ وذلك بأنهم آمنوا ثم عملوا، فكان عملهم بالفرائض من قِبَلِ إيمانهم بالله، ولم يكن إيمانهم من قِبَلِ عملهم بالفرائض.

60 ـ ولأن كثيرًا من الأوقات يرتفع فيه العمل عن المؤمن ولا يجوز أن يقال ارتفع فيه الإيمان؛ فإن الحائض يرفع الله سبحانه عنها الصلاة ولا يجوز أن يقال رفع عنها الإيمان وأمرها بترك الإيمان، وقد قال لها الشرع: دعي الصوم ثم اقضيه، ولا يجوز أن يقال: دعي الإيمان ثم اقضيه، ويجوز أن يقال: ليس على الفقير الزكاة، ولا يجوز أن يقال: ليس على الفقير الإيمان.

61 ـ وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه لا يتصور زيادته إلا بنقصان الكفر، وكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمنًا وكافرًا. فإن الكفر هو الإنكار والحجود والتكذيب، ولذلك إذا ترك المؤمن فريضة من غير أن يكفر بها سمي مسيئًا وإن تركها كفرًا بها سمي كافرًا جاحدًا لفرائض الله تعالى. وأما قول الجهال: هذا من ضعف اليقين، فإنما قالوا ذلك لجهالتهم بتفسير اليقين، واليقين بالشيء هو العلم بالشيء حتى لا يشك فيه. فليس أحد من أهل الشهادة يشك في الله وكتبه ورسله وإن ركب ما ركب، وإنما يعصيه لأن الشهوة ظاهرة غالبة، وإنما يغلب عليه الشهوات وما يركب المعصية وهو يعلم أنه يعذب عليها، ولكن يركبها لخصلتين: أما واحدة فإنه يرجو المغفرة، وأما الأخرى فإنه يأمل التوبة قبل المرض والموت. وربما يقدم الرجل على ما يخاف أن يضره من طعام أو شراب أو قتال أو ركوب البحر ولولا ما يرجو من النجاة من الغرق إذا ركب البحر أو الظفر إذا قاتل ما أقدم على القتال ولا ركب البحر.

62 ـ أما قوله تعالى: [زادتهم إيمانًا] فالمراد منه الزيادة من جهة التفصيل في كل حكم وفرض يتجدد في عصر النبي ـ عليه السلام ـ .

63 ـ ولما كان الإيمان غير العمل ولا يزيد ولا ينقص، فإيماننا مثل إيمان الملائكة والرسل؛ لأنا صدقنا بوحدانية الرب وربوبيته وقدرته وبما جاء من عنده بمثل ما أقرت به الملائكة وصدقت به الأنبياء والرسل، فمن هنا قلنا أن إيماننا مثل إيمان الملائكة والرسل لأنا آمنا بكل شيء آمنت به الملائكة والرسل مما عاينوه من عجائب آيات الله ولم نعاينه نحن. نعم هم أشد خوفًا وأطوع لله منا بخصال: أما واحدة، فإنهم كما فضلوا بالنبوة والرسالة فكذلك فضلوا بالخوف والرغبة وجميع مكارم الأخلاق على من سواهم، والخصلة الأخرى: أنهم كانوا يعاينون ما ينزل بغيرهم من العقوبة على المعصية فكان ذلك مما يحجزهم عن المعاصي. وللرسل بعد علينا الفضل في الثواب على الإيمان وجميع العبادة؛ لأن الله تعالى كما فضلهم بالنبوة على الناس كذلك فضل كلامهم وصلاتهم وصومهم وبيوتهم ومساكنهم وجميع أمورهم على غيرها من الأشياء، ولم يظلمنا ربنا

إذ لم يجعل لنا مثل ثوابهم؛ وذلك لأنه إنما يكون ظلمًا لو نقصنا حقنا فأسخطنا، فأما إذا زاد أولئك ولم ينقصنا حقنا وأعطانا حتى أرضانا فإن ذلك ليس بظلم.

64 ـ والأنبياء والرسل لهم الفضل في الدنيا على جميع الناس لأنهم القادة وهم أمناء الرحمن ولا يدانيهم أحد من الناس في عبادتهم وخوفهم وخشوعهم وتحملهم المؤنات في ذات الله تعالى. والأخرى أنه إنما أدرك الناس بإذن الله الفضل بهم فلهم أجور من يدخل الجنة بدعائهم.

65 ـ ونحن نعرف الله تعالى على ما عُرف حق معرفته كما وصف الله سبحانه نفسه في كتابه بجميع صفاته. وليس يقدر أحد أن يعبد الله تعالى حق عبادته كما هو أهل له ويعبده كما أمره؛ فاستوى المؤمنون في المعرفة واليقين والتوكل والخوف والرجاء والإيمان والتوحيد، ويتفاوتون فيما دون الإيمان في ذلك كله.

66 ـ والعبادة اسم جامع يجتمع فيه الطاعة والرغبة والرهبة والإقرار بالربوبية، وذلك بأنه إذا أطاع الله العبد في الإيمان به دخل عليه الرجاء والخوف من الله تعالى، فإذا دخل عليه هذه الخصال الثلاثة فقد عبده. ولا يكون مؤمنًا بغير رجاء ولا خوف، ولكنه رُبَّ مؤمن يكون خوفه من الله أشد وآخر يكون خوفه أقل. ولو كان العمل بالطاعة وحدها في كل شيء عبادة لكان كل من أطاع غير الله تعالى فقد عبده.

67 ـ والرجاء والخوف على منزلتين: وإحدى المنزلتين: من كان يرجو أحدًا أو يخافه يرى أنه يملك له من دون الله ضرًّا أو نفعًا فهو كافر، والمنزلة الأخرى: من كان يرجوا أحدًا أو يخافه مخافة أن ينزل الله تعالى به بلاء على يديه، وكذلك يرجوه للخير بأن يجريه الله تعالى على يديه، فإن هذا لا يكون كافرًا؛ لأن الوالد يرجو ولده أن ينفعه، ويرجو الرجل دابته أن تحمل له، ويرجو جاره أن يحسن إليه، ويرجو السلطان أن يدفع عنه الظلم، فلا يدخل عليه الكفر؛ لأنه إنما رجاه من الله تعالى عسى الله أن ينفعه به، فلا يكون كافرًا. وقد يخاف الشر ويفر منه مخافة أن يبتليه الله تعالى به. والقياس في ذلك موسى ـ عليه السلام ـ الذي اصطفاه الله برسالته وخصه بكلامه إياه، قال: [إني أخاف أن يقتلون]، ومحمد ﷺ الذي خصه الله بكونه حبيبه حيث فر إلى الغار، فلم يدخل عليهما الكفر.

68 ـ وليس شيء بأهيب إلى المؤمن من الله تعالى؛ وذلك أنه ينزل به البلاء الشديد في جسمه أو تنزل به المصيبة الموجعة من الله تعالى فلا يقول في سر ولا علانية: بئس ما صنعت يا رب. فلا يحدث نفسه بذلك ولا يزداد له إلا ذكرًا، ولو نزل به عشر عشير ذلك البلاء من بعض ملوك الدنيا لتناوله وجوحَره بقلبه ولسانه عند أهل الثقة حيث لا يسمع ذلك الملك كلامه. فالمؤمن يراقب الله تعالى في السر والعلانية وفي الحر والبرد، وملوك الدنيا لا يراقَبون في السر والعلانية ولا في المكروه والرضا.

69 ـ والمؤمن إذا عصى الله تعالى، ليس يكون بمعصيته تلك مطيعًا للشيطان، طالبًا لمرضاته بتعمد ذلك، وإن وافق عمله للشيطان طاعة ورضا، ولا يكون لله عدوًّا وإن ركب جميع الذنب بعد أن لا يدع التوحيد؛ وذلك بأن

العدو يبغض عدوه ويتناول عدوه بالمنقصة، والمؤمن قد يرتكب العظيم من الذنب، والله تعالى في ذلك أحب إليه مما سواه؛ وذلك أنه لو خير بين أن يحرق بالنار أو يفتري على الله تعالى من قلبه لكان الاحتراق بالنار أحب إليه.

فصل

في المنع من تكفير أهل القبلة

70 ـ واعلم أني أقول: أهل القبلة مؤمنون، لست أخرجهم من الإيمان بتضييع شيء من الفرائض.

71 ـ ولا نكفر مسلمًا بذنب من الذنوب وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنهم اسم الإيمان. ونسميه مؤمنًا حقيقة، ويجوز أن يكون مؤمنًا فاسقًا غير كافر. فمن أطاع الله تعالى في الفرائض كلها مع الإيمان كان من أهل الجنة عندنا، ومن ترك الإيمان والعمل كان كافرًا من أهل النار. ومن أصاب الإيمان وضيع شيئًا من الفرائض كان مؤمنًا مذنبًا وكان لله تعالى فيه المشيئة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، إن عذبه على تضييعه فعلى ذنب يعذبه، وإن يغفر له فذنبًا يغفر.

72 ـ حدثني واصل بن حبان الأسدي عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: نعم. وحدثني به عبد الله بن أبي حبيبة عن أبي الدرداء عن النبي ـ عليه السلام ـ بزيادة قوله: وإن زنى وإن سرق، رغم أنف أبي الدرداء. وحدثني أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، هل في هذه الأمة ذنب يبلغ الكفر؟ قال: لا، إلا الشرك.

73 ـ قال معاذ: من شك في الله فإن ذلك يبطل جميع حسناته، ومن آمن وتعاطى المعاصي ترجى له المغفرة ويخاف عليه العقوبة. قال السائل لمعاذ: إذا كان الشك يهدم الحسنات فإن الإيمان أهدم وأهدم للسيئات. قال معاذ: والله ما رأيت رجلًا أعلم من هذا الرجل. وحدثني الحارث بن عبد الرحمن عن أبي مسلم الخولاني أن معاذ بن جبل لما قدم مدينة حمص اجتمعوا إليه وسأله شاب فقال: ما تقول فيمن يصلى ويصوم ويحج البيت ويجاهد في سبيل الله ويعتق ويؤدي زكاته غير أنه يشك في الله ورسوله؟ قال: هذا له النار. قال: فما تقول فيمن لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ولا يؤدي زكاته غير أنه مؤمن بالله ورسوله؟ قال: أرجو وأخاف عليه. فقال الفتى: يا أبا عبد الرحمن، كما أنه لا ينفع مع الشرك عمل فكذلك لا يضر مع الإيمان شيء، ثم مضى الفتى. فقال معاذ: ليس في هذا الوادي أحد أفقه من هذا الفتى.

74 ـ ولأن الهدى في التصديق بالله ورسله ليس كالهدى فيما افترض من الأعمال، ومن أين يشكل ذلك عليك وأنت تسميه مؤمنًا وهو جاهل بمالا يعلم من الفرائض، فهل بدٌّ من أن تسميه مؤمنًا بتصديقه كما سماه الله تعالى في كتابه، وأن تسميه جاهلًا بمالا يعلم من الفرائض، فإنه إنما يتعلم ما يجهل، فهل يكون الضال عن معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله كالضال عن معرفة ما يتعلمه الناس وهم مؤمنون، وقد قال الله تعالى في تعليمه الفرائض: [يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم]، وقال تعالى: [أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى]، وقال: [قال فعلتها إذًا وأنا من الضالين] يعني: من الجاهلين. والحجج من كتاب الله تعالى والسنة على تصديق ذلك أبين وأوضح. أولست تقول: مؤمن ظالم، ومؤمن مذنب، ومؤمن مخطئ، ومؤمن عاص، ومؤمن جائر، هل يكون فيما ظلم وأخطأ مهتديًا فيه مع هداه في الإيمان أو يكون ضالاً عن الحق الذي أخطأه؟ وقول بني يعقوب عليه السلام لأبيهم: [إنك لفي ضلالك القديم] أتظن أنهم عنوا إنك لفي كفرك القديم! حاش لله أن تفهم هذا. فمن أذنب ذنبًا فهو ظالم مؤمن وليس بكافر ولا بمنافق. قال تعالى: [وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ]، وقال تعالى لمحمد ﷺ: [ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر]، وموسى عليه السلام حين قتل الرجل القبطي كان في قتله مذنبًا لا كافرًا، وإخوة يوسف عليه السلام قالوا: [يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين] وكانوا مذنبين لا كافرين.

75 ـ وإن الناس إذا لم يستحقوا التصديق بالعمل حين كلفوه، فإن زعمت أنهم مؤمنون يجري عليهم أحكام المسلمين وحُرْمَتُهم صدقت وكان صوابًا، وإن زعمت أنهم كفار فقد ابتدعت وخالفت النبي والقرآن، وإن قلت بقول من تعنت من أهل البدع وزعمت أنه ليس بكافر ولا مؤمن، فاعلم أن هذا القول بدعة وخلاف للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقد سُمي عمر رضي الله تعالى عنه أمير المؤمنين، وسمي علي رضي الله تعالى عنه أمير المؤمنين، أوَ أمير المطيعين في الفرائض كلها يعنون؟! وقد سَمى علي رضي الله تعالى عنه أهل حربه من أهل الشام مؤمنين في كتاب القضية، أوَ كانوا مهتدين وهو يقتلهم؟! وقد اقتتل أصحاب رسول الله ﷺ ولم تكن الفئتان مهتديتين جميعًا، فما اسم الباغية عندك؟ فوالله ما أعلم من ذنوب أهل القبلة ذنبًا أعظم من القتل، ثم دماء أصحاب محمد ﷺ خاصة، فما اسم الفريقين عندك وليستا مهتديتين جميعًا؟ فإن زعمت أنهما مهتديتان جميعًا ابتدعت، وإن زعمت أنهما ضالتان جميعًا ابتدعت، فإن زعمت أن إحداهما مهتدية فما الأخرى؟ وإن قلت الله أعلم، أصبت. وهذا أمر أصحاب محمد ـ عليه السلام ـ وأمر السنة والفقه. زعم عطاء بن أبي رباح ونحن نصف له هذا أن هذا أمر أصحاب محمد ﷺ وآله وأنه فارق على هذا. وزعم سالم عن سعيد بن جبير أن هذا أمر أصحاب محمد ﷺ، وزعم نافع وعبدالكريم عن طاوس أن هذا أمر عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، وقد بلغ عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين كتب القضية أنه سمى الطائفتين مؤمنتين جميعًا. وزعم ذلك أيضًا عمر بن عبدالعزيز، وقال: ضعوا لي في هذا كتابًا ثم أنشأ يعلمه ولده ويأمر بتعليمه، فكان بمكان من المسلمين.

76 ـ وأما من يزعم أن شارب الخمر لا يقبل منه صلاة أربعين ليلة أو أربعين يومًا، فلست أدري تفسير الذي يقولون؟ فلا أكذبهم ما داموا لا يفسرونه تفسيرًا لا نعرفه مخالفًا للعدل. وأكذب منه من روى أن المؤمن إذا زنى خلع الإيمان من رأسه كما يخلع القميص ثم إذا تاب أعيد إليه إيمانه. وأرد على من يحدث عن النبي بالباطل، والتهمةُ دخلت عليه.

77 ـ وكل شيء تكلم به نبي الله سمعناه أو لم نسمعه فعلى الرأس والعينين، قد آمنا به ونشهد أنه كما قال نبي الله. ونبي الله لا يخالف كتاب الله.

78 ـ وهذا الذي رووه خلاف القرآن لأنه تعالى قال: [الزانية والزاني]، لم ينف عنهما اسم الإيمان. وقال تعالى: {واللذان يأتيانها منكم}. فقوله: منكم. لم يعن به اليهود والنصاري وإنما عنى به المسلمين. وقوله تعالى: [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون] أي: من لم يؤمن به. حدثنا به بعض مشايخنا عن ابن عمر.

79 ـ واعلم أن أجهل الأصناف كلها وأردأهم منزلة عندي من الناس صنف من الناس يقولون: إنا نعلم أن الزاني ليس بكافر وعسى أن يكون الذي يروي أن الزاني إذا زنى نزع منه الإيمان كما ينزع السربال كان صادقًا، فإنا لا نكذبه. ويقولون: من مات ولم يحج وقد أطاق الحج فنحن نسميه مؤمنًا ونصلي عليه ونستغفر له ونقضي عنه حجه، ولا نكذب من يقول مات يهوديًا ونصرانيًا. ينكرون قول الشيعة ويقولون قولهم، وينكرون قول الخوارج ويقولون قولهم، وينكرون قول المرجئة ويقولون قولهم. ويروون في تحقيق وتزييف أقاويل هؤلاء الأصناف الثلاثة، يروون في ذلك روايات يزعمون أن نبي الله ﷺ قالها. وقد علمنا أن الله تعالى إنما بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرقة وليزيد به الألفة ولم يبعثه ليفرق الكلمة ويحرش المسلمين بعضهم على بعض.

80 ـ ويزعمون أنه إنما جاء الاختلاف بهذه الروايات لأن منها ناسخًا ومنسوخًا فنحن نروي كما سمعنا. فويل لهم، ما أقل اهتمامهم بأمر عاقبتهم حيث ينتصبون على الناس فيحدثونهم بما قد علموا أن بعضها منسوخ. والعمل بالمنسوخ اليوم ضلالة فيأخذ الناس به فيضلون، وقد نعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن ليفسر الآية الواحدة على نوعين، فما كان من القرآن ناسخًا فسره ناسخًا لجميع الناس، وكذلك المنسوخ فسره لجميع الناس منسوخًا. وأما الأخبار والصفات التي قد كانت فإنه ليس في شيء منها منسوخ، إنما دخل الناسخ والمنسوخ في الأمر والنهي.

81 ـ ولا نقول إن المؤمن لا يضره الذنوب وأنه لا يدخل النار، ولا نقول إنه يخلد في النار وإن كان فاسقًا بعد أن يخرج من الدنيا مؤمنًا. ولكن نقول: ما كان من السيئات دون الشرك والكفر ولم يتب عنها صاحبها حتى مات مؤمنًا فإنه في مشيئة الله إن شاء عذبه بالنار وإن شاء عفا عنه ولم يعذبه بالنار.

82 ـ وما أعلم شيئًا من المعاصي يعذب الله عليه غير الإشراك، وقد علمت أن بعضها مغفور ولا أعرفها، لقول الله تعالى: [إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ] فلست أعرف جميع الكبائر ولا السيئات التي تغفر والتي لا تغفر، لأني لا أدري لعل الله يغفر ما دون الشرك من المعاصي كلها؛ لأنه تعالى قال: [إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ] فلست أدري لمن يشاء المغفرة منهم ولمن لا يشاء. وقد أعلم أنه إن كان الله تعالى يغفر للقاتل فصاحب النظرة أجدر أن يغفر له، وإن عذب على النظرة فهو على القتل أجدر أن يعذب؛ لأنه تعالى قال: [إن أكرمكم عند الله أتقاكم]، وصاحب النظرة إذا لم يقتل كان أتقى من القاتل. وأما الرجاء لهما فإنهما لا يستويان عندي؛ لأني لصاحب الذنب الصغير أرجى مني لصاحب الذنب الكبير وأنا في ذلك أخاف عليهما جميعًا. وأنا على صاحب الذنب الكبير أخوف مني على صاحب الذنب الصغير، فأنا أرجو لهما وأخاف عليهما على قدر أعمالهما.

83 ـ وما أستطيع أن أمضي الشهادة على أحد من أهل المعاصي من أهل القبلة أن الله تعالى معذبه البتة عليها غير الإشراك بالله. قال الله تعالى لنبيه ـ عليه السلام ـ [ولا تقف ما ليس لك به علم] أي لا تقل مالم تعلمه يقينًا وعلمًا [إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً].

84 ـ وقد جاء أصل الإرجاء من قبل الملائكة حيث عرض عليهم الأسماء ثم قال: [أنبئوني بأسماء هؤلاء] فخافت الملائكة الخطأ إن تكلموا بغير علم تعسفًا فوقفت وقالت: [سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا]. وتفسير الوقوف أنه إذا سئلت عن أمر لا تعلمه من حرام أوحلال أو أنباء من كان قبلنا، قلت: الله أعلم به. ومن الإرجاء أن ترجئ أهل الذنوب ولا تقول أنهم من أهل النار أو من أهل الجنة.

85 ـ ومن قالت الأنبياء أنه من أهل الجنة فهو من أهل الجنة. والمنزلة الأخرى: المشركون نشهد عليهم أنهم من أهل النار. والمنزلة الثالثة: هم الموحدون، نقف عنهم ولا نشهد عليهم أنهم من أهل النار ولا من أهل الجنة، حتى يكون الله يقضي فيهم، ولكنا نرجوا لهم ونخاف عليهم، ونقول كما قال الله تعالى [خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم]، وقال تعالى: [إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء]، ونخاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم، ونقول كما قال عيسى ـ عليه السلام ـ : [إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم]، وكما قال نوح: [إن حسابهم إلا على ربي] وكما قال: [لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب]. وهذا قول أهل العدل وأهل السنة. وأما ما سماهم به أهل البدع من اسم المرجئة فإنما هو اسم سماهم به أهل شنئان.

86 ـ حدثني رجل عن المنهال عن ابن عمر وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شرار أمتي الذين يقولون أنا في الجنة دون النار. وحدثت عن أبي ضبيان قال: قال رسول الله ﷺ: ويل للمتألين من أمتي. قيل: يا رسول الله، وما المتألون؟ قال: الذين يقولون فلان في الجنة وفلان في النار.

وحدثني نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقولوا أمتي في الجنة ولا في النار، دعوهم حتى يكون الله يحكم بينهم يوم القيامة. وحدثني أبان عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: لا تنزلوا عبادي جنة ولا نارًا حتى أكون أنا الذي أحكم فيهم يوم القيامة وأنزلهم منازلهم. فمن قال إني من أهل الجنة فقد كذب، لا علم له به. وكذا من قال إنه من أهل النار فقد كذب وأيس من رحمة الله.

87 ـ والمؤمن يدخل الجنة بالإيمان ويعذب في النار بالإحداث. فمن قتل نفسًا بغير حق أو سرق أو قطع الطريق أو فجر أو فسق أو زنى أو شرب الخمر أو سكر، فهو مؤمن فاسق وليس بكافر. وإنما يعذبهم بالإحداث في النار ويخرجهم منها بالإيمان.

88 ـ والذنب على منزلتين غير الإشراك بالله، فأي الذنبين ركب هذا العبد فإن الدعاء له بالاستغفار أفضل، وإن دعوت عليه باللعنة لم تأثم؛ وذلك بأنه إن ركب ذنبًا منك وعفوت عنه ولم تدع عليه كان أفضل وإن ركب ذنبًا فيما بينه وبين خالقه بعد أن كان لم يشرك بالله فرحمته ودعوت له بالمغفرة لحرمة الشهادة كان هذا أفضل، وإن دعوت عليه بالهلاك لم تأثم، وذلك بأنك تقول يارب خذه بذنبه، وإنما تكون آثمًا إذا أنت قلت: يا رب خذه بغير ذنب كان منه. فالاستغفار له أفضل؛ لخصلتين: أما واحدة: فلأنه مؤمن. والأخرى: أنك لا تستيقن أن الله تعالى معذبه.

89 ـ ولو استيقنت أن الله معذبه لكان حرامًا عليك الاستغفارله، وقد نهى الله تعالى أن يستغفر لمن أوجب له النار، والذي سيستغفر الله لمن قال الله تعالى أنه يعذبه يسأل ربه أن يخلف قوله، كالذي يقول: يا رب لا تمتني بواحدة، وقد قال الله تعالى: [كل نفس ذائقة الموت].

90 ـ والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفرة أفضل لحرمة هذه الشهادة والإقرار بها؛ لأنه ليس شيء يطاع الله فيه أفضل من الإقرار بهذه الشهادة. وجميع ما أمر الله تعالى به من فرائضه في جنب الإقرار بهذه الشهادة أصغر من البيضة في جنب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهن. حدثني أبو بردة ابن أبي موسى عن أبيه أبي موسى الأشعري عنه ـ عليه السلام ـ أنه قال: إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من هذه الأمة رجل من أهل الكتاب فقيل له: هذا فداؤك من النار.

91 ـ فكما أن ذنب الإشراك أعظم كذلك أجر الشهادة أعظم، وقد ذكر الله في تعظيم ذنب الإشراك مالم يذكره في تعظيم شيء من الأعمال السيئة؛ لأنه تعالى قال: [إن الشرك لظلم عظيم]، ولم يقل مثل ذلك في شيء من الأعمال السيئة. وقال: [وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ]، وقال: [تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا]، ولم يقل شيئًا من هذه الآيات في القتل وما دونه.

92 ـ والمؤمن وإن عُذِّب ينفعه إيمانه لأنه يرفع عنه أشد العذاب. وأشد العذاب إنما يكون على الكافر؛ لما ذكر أنه لا ذنب أعظم من الكفر، وهذا المؤمن لم يكفر بالله ولكن عصاه في بعض ما أمره به، فيعذب إن عذب على ما عمل، ولا يعذب على مالم يعمل، كالرجل الذي قتل ولم يسرق، فإنما يؤاخذ بالقتل ولا يؤاخذ بالسرقة، ولذلك قال الله تعالى: [ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون]. والمريض مهما كان مرضه أقل كان أهون عليه، والذي يعذب في الدنيا ويرفع عنه أشد العذاب ويعذب بلون واحد فهو أهون عليه من أن يعذب بلونين، كذلك المؤمن إن عذب على ذنب واحد فهو عليه أهون من أن يعذب على ذنبين.

93 ـ ولا يدخل النار إلا مؤمن، فإن الكفار يؤمنون يومئذ؛ لقوله تعالى: [فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ (84) فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ].

94 ـ ولا نقول إن حسناتنا مقبولة وإن سيئاتنا مغفورة كقول المرجئة، ولكن نقول: من عمل حسنة بجميع شرائطها خالية من العيوب المفسدة ولم يبطلها حتى خرج من الدنيا مؤمنًا فإن الله تعالى لا يضيعها بل يقبلها ويثيبه عليها. فإن من عدل الله أن يؤاخذ العبد بما ركب من الذنب أو يعفو عنه ولا يؤاخذه بما لم يرتكب من الذنب، وأن يحسب له ما أدى إليه من الفرائض ويكتب عليه ذنبه، ولذلك قال الله تعالى: [لها ما كسبت] من الخير، [وعليها ما اكتسبت] يعني به: من الشر، وقال تعالى: [إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى]، وقال: [إنا لا نضيع أجر من أحسن عملًا]، وقال: [ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون]، وقال: [إنما تجزون ما كنتم تعملون]، وقال: [فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره]، وقال: [وكل صغير وكبير مستطر]. فهو تبارك وتعالى يكتب الصغير من الحسنات والسيئات. وقال: [ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين]. فمن قال لا، بهذا القول فإنه يصف الله تعالى بالجور، وقد أمَّن الله الناس من الظلم والجور حيث قال: [فلا تظلم نفس شيئًا] [ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون]، وقد سمى نفسه شكورًا؛ لأنه يشكر الحسنة وهو أرحم الراحمين.

95 ـ وأما الحسنات فإنه لا يهدمها شيء غير ثلاث خصال: أما الواحدة: فالشرك بالله؛ لأن الله تعالى قال: [ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله]، والأخرى: أن يعمل الإنسان فيعتق نسمًا أو يصل رحمًا أو يتصدق بمال يريد بهذا كله وجه الله ثم إذا غضب أو قال في غير الغضب امتنانًا على صاحبه الذي هو كان المعروف منه إليه: ألم أعتق رقبتك؟ أو يقول لمن وصله: ألم أصلك؟ وفي أشباه هذا يُضْرب به على رأسه. ولذلك قال تعالى: [لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى]، والثالثة: ما كان من عمل يرائي به الناس، فإن ذلك العمل الصالح الذي راءى به الناس لا يتقبله الله منه ويبطل أجره وكذلك العُجب. فما كان سوى هذه السيئات فإنه لا يهدم الحسنات.

فصل

في خلق الجنة والنار وأنهما لا تفنيان

96 ـ والجنة والنار حق وهما مخلوقتان الآن لأهلهما، خلقهما الله للثواب والعقاب؛ لقوله تعالى في حق المؤمنين: [أعدت للذين آمنوا بالله ورسله]، وفي حق الكفرة :[أعدت للكافرين]. ومن قال إنهما ليستا بمخلوقتين يقال له: هما شيء أو ليستا بشيء؟ وقد قال الله تعالى: [الله خالق كل شيء]، وقال تعالى: [إنا كل شيء خلقناه بقدر]، وقال تعالى: [الناريعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا]. وهما لا تفنيان أبدًا؛ لأن الله تعالى وصف نعيم الجنة بقوله: [لا مقطوعة ولا ممنوعة]. ولا تموت الحور، ولا يفنى عقاب الله تعالى ولا ثوابه سرمدًا.

97 ـ وأهل الجنة في الجنة خالدون، وأهل النار في النار خالدون؛ لقوله تعالى في حق المؤمنين: [أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون]، وفي حق الكفار: [أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون]. فمن قال أنهما تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما كفر بالله؛ لأنه أنكر الخلود فيهما.

98 ـ حدثني علقمة بن مرثد عن ابن بريدة عن أبيه عن النبي عليه السلام أنه قال لأصحابه: أبشروا فإن أهل الجنة عشرون ومائة صف: أمتي من ذلك ثمانون صفًا. وحدثني يحيى بن عبيد الله بن موهب عن أبيه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين. وحدثني عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه. قيل: فمن مات صغيرًا؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين. حدثني قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأله حبر عن قوله تعالى [وجنة عرضها كعرض السماء والأرض] قال: فأين النار؟ فقال عمر: إذا جاء الليل ملأ السموات والأرض فأين الآخر؟ فقال: في علم الله. فقال عمر: فكذلك النار حيث شاء الله.

فصل

في السمعيات ووجوب الإيمان بها

99 ـ وإعادة الروح إلى العبد وضغطة القبر وعذابه حق جائز، كائن للكفار ولبعض العصاة من المسلمين. وسؤال منكر ونكير في القبر حق كائن لورود الأحاديث.

100 ـ ومن قال لا أعرف عذاب القبر فهو من الجهمية الهالكة؛ لأنه أنكر قوله تعالى: [سنعذبهم مرتين] يعني: عذاب القبر. وقوله تعالى: [وإن للذين ظلموا عذابًا دون ذلك] يعني: في القبر. فإن قال: أؤمن بالآية ولا أؤمن بتأويلها وتفسيرها فهو كافر؛ لأن من القرآن ما تنزيله تأويله، فإن جحد بها فقد كفر.

101 ـ حدثني علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: إذا وضع المؤمن أتاه الملك فأجلسه فقال: من ربك؟ فقال: الله. قال: ومن نبيك؟ قال: محمد. قال: وما دينك؟ قال: الإسلام. قال فيفسح له في قبره ويرى مقعده من الجنة. فإذا كان كافرًا أجلسه الملك فقال: من ربك؟ قال: هاه لا أدري ـ كالمضل شيئًا ـ . فيقول: من نبيك؟ فيقول: هاه لا أدري ـ كالمضل شيئًا ـ . فيضيق عليه قبره ويرى مقعده من النار. فيضربه ضربة يسمعها كل شيء إلا الثقلين الجن والإنس. ثم قرأ رسول الله ﷺ: [يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ]. وحدثني هيثم بن حبيب الصيرفي عن الحسن البصري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: من مات يوم الجمعة وُقِيَ عذاب القبر.

102 ـ والله تعالى يحيي هذه النفوس بعد الموت ويبعثهم في زمان مقداره خمسين ألف سنة للجزاء والثواب وأداء الحقوق؛ لقوله تعالى:[وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ].

103 ـ ووزن الحسنات بالميزان يوم القيامة حق؛ لقوله تعالى: [وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ] ، حدثني حماد عن إبراهيم قال: يجاء بعمل العبد فيجعل في ميزانه فتخف، فيجاء بشيء كالسحاب فيوضع في ميزانه فيرجح فيقال له: هل تدري ما هذا؟ فيقول: لا. فيقال: هذا عملك، علَّمْتَه فتعلموه وعملوا به بعدك.

104 ـ وقراءة الكتب حق؛ لقوله تعالى: [اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا].

105 ـ وحوض النبي حق.

106 ـ والقصاص فيما بين الخصوم يوم القيامة حق، فإن لم تكن لهم حسنات فطرْح السيئات عليهم حق. حدثني عطاء بن السائب عن محارب بن دثار عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي أنه قال: إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

فصل

في الشفاعة

107 ـ وشفاعة الأنبياء عليهم السلام حق.

108 ـ وشفاعة النبي محمد ﷺ للمؤمنين المذنبين ولأهل الكبائر منهم المستوجبين للعقاب. حدثني نوح بن قيس عن يزيد الرقاشي عن أنس قال: قلنا يا رسول الله، لمن تشفع يوم القيامة؟ قال: لأهل الكبائر، وأهل العظائم، وأهل الدماء. وحدثني سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن ابن مسعود ويزيد بن صهيب عن جابر عنه عليه السلام أنه قال: ليخرجن بشفاعتي من النار أهل الإيمان حتى لا يبقى فيها أحد إلا أهل هذه الآية: [مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ (42) قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ (43) وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (46) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ (47) فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (48)]. وحدثني عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري وعبد الملك بن عمير، وعن عبد الله بن عباس وحماد، عن ربعي بن خراش، عن حذيفة، وهُمْ عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى : [عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا]، المقام المحمود: الشفاعة، يعذب الله قوما من أهل الإيمان بذنوبهم ثم يخرجهم بشفاعة محمد عليه السلام فيؤتى بهم نهر يقال له الحيوان، فيغتسلون فيه ثم يدخلون الجنة فيسمون في الجنة: الجهنميين. ثم يطلبون إلى الله فيذهب عنهم ذلك الاسم فيسمون عتقاء الله.

فصل

في الصحابة، ووجوب توقيرهم، وكف اللسان عنهم، والمفاضلة بينهم

109 ـ وافضل هذه الأمة بعد نبينا محمد ﷺ: أبو بكر الصديق، ثم عمربن الخطاب الفاروق، ثم عثمان بن عفان ذو النورين، ثم علي بن أبي طالب، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؛ لقوله تعالى: [والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم]. وكل من كان أسبق فهو أفضل. حدثني عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام أنه قال: إن أهل الدرجات العلا ليراهم من هو أسفل منهم كما يرى الكوكب الدري في أفق السماء،

وإن أبا بكر وعمر منهم. وحدثني عبد الملك بن عميرالكوفي، عن ربعي بن خراش، عن حذيقة بن اليمان رضي الله تعالى عنهم؛ وسلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، عنه عليه السلام أنه قال: اقتدوا بالذَين من بعدي أبي بكر وعمر. وحدثني حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما أغمي على رسول الله عليه السلام قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس فقيل: يا رسول الله إن أبا بكر رجل حصر، وهو يكره أن يقوم مقامك، فقال: افعلوا ما أمرتكم به. وحدثني جامع بن أبي راشد عن زياد بن جرير أن عمر رضي الله تعالى عنه لما طعن قال: أيها الناس قد جعلت أمركم إلى ستة قبض رسول الله وهو عنهم راض، وقد أجلتهم ثلاثًا يختارون لأنفسهم وللأمة فإن اجتمع الناس على أحدهم وأبى واحد منهم أن يبايع فكونواعليه، وإن اشتجروا فكونوا في فئة ابن عوف.

110 ـ وعليٌّ كان مصيبًا في حربه، ومن قاتله كان على الخطأ. ولنسكت عن قتال طلحة والزبير وعائشة معه، ولا نكشف عنه. حدثني عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ما آسى على شيء إلا أن أكون قاتلت الفئة الباغية.

111 ـ وكانوا عابدين على الحق مع الحق. نتولاهم جميعًا ولا نذكر أحدًا من أصحاب رسول الله ـ عليه السلام ـ إلا بخير. ولا نتبرأ عن أحد منهم، ولا نتولى أحدًا دون أحد. ونرد أمر عثمان وعليّ إلى الله. ويحبهم كل مؤمن تقي ويبغضهم كل منافق شقي. سألت أبا جعفر محمد الباقر: هل شهد علي موت عمر؟ فقال: سبحان الله أوليس القائل: ما أحد من الناس أحب إلى من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى. وقد زوجه بنته. لولا أنه رآه أهلًا أكان يزوجها إياه؟ وكانت أشرف نساء العالمين. وحدثني عبد الملك بن عمير، عن عمرو بن حريث، عن سعيد بن زيد عنه ـ عليه السلام ـ أنه قال: عشرة في الجنة: أبو بكر في الجنة، عمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعيد في الجنة، وسعد في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة في الجنة. فقيل له: وأنت؟ فبكى.

112 ـ وعائشة بعد خديجة الكبرى ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أفضل نساء العالمين، وأم المؤمنين.

113 ـ وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وزينب ـ رضي الله تعالى عنهن ـ كن جميعًا بنات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

فصل

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولزوم الجماعة

114 ـ ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر. حدثني عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة. قلت: فيكفرمن تركه؟ قال: لا.

115 ـ ولا نرى أن يتبع من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ناس فيخرج على الجماعة؛ لأنه وإن كان فريضة واجبة قد أمرالله ورسوله بذلك، لكن ما يفسدون من ذلك أكثر مما يصلحون من سفك الدماء واستحلال المحارم وانتهاب الأموال. وقد قال الله تعالى: [وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ]. وحدثني زياد بن علاقة عن عرفجة عنه ـ عليه السلام ـ أنه قال: سيكون بعدي هناتٌ وهناتٌ فمن أتاكم يشتت أمركم وهو مجتمع فاقتلوه كائنًا من كان.

116 ـ فتقاتل الباغية بالسيف على ما قاتلهم الأئمة من أهل الخير علي وعمر بن عبد العزيز. وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه حجتنا عند الله يوم القيامة ولولا عليٌّ ما علمنا كيف نقاتل أهل القبلة.

117 ـ فتأمر وتنهى، فإن قُبِل وإلا قاتلتها فتكون مع الفئة العادلة وإن كان الإمام جائرًا. لقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: لا يضركم جورمن جار ولا عدل من عدل، لكم أجركم وعليه وزره. فتقاتل أهل البغي بالبغي لا بالكفر. وتكون مع الفئة العادلة والسلطان الجائر ولا تكون مع أهل البغي؛ فإن كان في أهل الجماعة فاسدون وظالمون فإن فيهم أيضًا صالحين يعينونك عليهم.

118 ـ وكفرالخوارج كفر بما أنعم الله عليهم، ولا غرامة عليهم بعد سكون الحرب ولا حد ولا قصاص؛ لإجماع الصحابة على ذلك. فإن كانت الجماعة باغية فاعتزلهم واخرج إلى غيرهم، قال الله تعالى: [ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها]. وقال تعالى: [إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون]، وحدثنا حماد عن إبراهيم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ: إذا ظهرت المعاصي في أرض ولم تطق أن تغيرها فتحول عنها إلى غيرها فاعبد بها ربك. حدثني بعض أهل العلم عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله ﷺ: من تحول من أرض يخاف الفتنة فيها كتب الله له أجر سبعين صديقًا.

119 ـ والصلاة خلف كل إمام بر وفاجر من المؤمنين جائزة فلك أجرك وعليه وزره.

120 ـ والتروايح في شهر رمضان سنة.

121 ـ والمسح على الخفين واجب للمقيم يومًا وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام ولياليها؛ لأن الحديث ورد هكذا فمن أنكر فإنه يخشى عليه الكفر؛ لأنه قريب من الخبر المتواتر.

122 ـ والقصر والإفطار في السفر رخصة؛ لنص الكتاب: لقوله تعالى: [إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة]، وفي الإفطارقوله تعالى: [فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر].

الخاتمة

في أشراط الساعة

1 ـ وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من المغرب، ونزول عيسى عليه السلام من السماء، وسائر علامات يوم القيامة على ما ورد به الأخبار الصحيحة حق كائن. حدثني معاوية بن إسحاق عن ذر عن صفوان بن عسال عن النبي ﷺ: أنه قال: إن الله فتح بابًا من المشرق مسيرة خمسمائة عام للتوبة، وسيغلق ويفتح بالمغرب حتى تطلع الشمس من مغربها فلا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا. وحدثني الهيثم بن حبيب عن عامرالشعبي عن مسروق النخعي عن ابن مسعود قال: قد مضى الدخان والبطشة على عهد رسول الله عليه السلام.

2 ـ وحدثني عبدالرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: ليأتي على الناس زمان يختلسون إلى القبورفيضعون بطونهم عليها ويقولون: وددنا أنا كنا صاحب هذا القبر. قيل: يارسول الله، وكيف يكون هذا؟ قال: لشدة الزمان وكثرة البلايا والفتن. وحدثني أبومالك الأشجعي عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: يدرس الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب ولا يبقى إلا شيخ كبير أو عجوز فانية يقول: قد كان قبلنا قوم يقولون لا إله إلا الله. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والحمد لله رب العالمين.

سند مؤلف الأصول المنيفة إلى واضع أصلها الإمام أبي حنيفة

قد نجزت الأصول المنيفة للإمام أبي حنيفة براوية جامعها الفقير إلى الله: القاضي كمال الدين أحمد، عن أبيه القاضي حسام الدين حسن بن الشيخ سنان الدين يوسف بن محمد البياضي من طريقين: **أحدهما:** عن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن أحمد، عن شيخ الإسلام حامد بن محمد القنوي، عن شيخ الإسلام أبي السعود محمد العمادي، عن القاضي سيدي ابن محمد الحميدي، عن شيخ الإسلام علاء الدين على العربي، عن شيخ الإسلام شمس الدين أحمد بن إسماعيل الكوراني، عن الشيخ الإمام كمال الدين محمد بن القاضي همام الدين السيواسي،

عن قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني، عن الشيخ الإمام أمين الدين جبريل بن صالح البغدادي، عن الشيخ الإمام أمير كاتب بن العميد الإتقاني، عن الشيخ الإمام برهان الدين محمد الخريقعني البخاري، عن الشيخ الإمام حافظ الدين محمد بن نصر البخاري، عن الشيخ الإمام شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكردي، عن الشيخ الإمام عماد الدين عمر بن أبي بكر، عن أبيه شمس الأئمة أبي بكربن محمد الزرنجدي، عن الشيخ شمس الأئمة محمد بن سهل السرخسي، عن الشيخ شمس الائمة عبد العزيز بن أحمد الحلواني البخاري، عن القاضي الإمام أبي علي النسفي، عن الشيخ الإمام محمد بن الفضل البخاري، عن الإمام أبي محمد عبد الله بن محمد السيدموني، عن الشيخ الإمام محمد بن مقاتل الرازي، عن قاضي القضاة أبي يوسف يعقوب الأنصاري عن إمام الأئمة أبي حنيفة الكوفي، وعن القاضي الإمام إسماعيل بن القاضي حماد عن أبيه القاضي حماد عن أبيه إمام الأئمة أبي حنيفة، وعن القاضي أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي عن إمام الأئمة أبي حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي بن النعمان الفارسي. **والطريق الثانية:** عن قاضي القضاة مصلح الدين مصطفى، عن أبيه القاضي بير محمد العربي، عن قاضي القضاة سنان الدين يوسف بن محمد، عن قاضي القضاة عُلا الدين علي بن القاضي أمر الله الحنائي، عن شيخ الإسلام شيخ محمد بن إلياس، عن القاضي بالي بن محمد، عن قاضي القضاة محيى الدين محمد، عن أبيه القاضي تاج الدين إبراهيم بن الخطيب، عن شيخ الإسلام محمد يكان البرسوي، عن شيخ الإسلام شمس الدين محمد الفناري، عن شيخ الإسلام أكمل الدين محمد البابرتي، عن الشيخ الإمام قوام الدين محمد الكاكي، عن الشيخ الإمام علاء الدين عبد العزيز البخاري، عن الشيخ الإمام فخر الدين محمد المايمرغي، عن الشيخ الإمام شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكردي، عن شيخ الإسلام برهان الدين على بن أبي بكرالمرغيناني، عن شيخ الإسلام نجم الدين أبي حفص عمر النسفي، عن صدر الإسلام أبي اليسر محمد البزدوي، عن الشيخ الإمام إسماعيل بن عبد الصادق البياري، عن الشيخ الإمام عبد الكريم بن موسى البزدوي، عن علم الهدى الإمام أبي منصور محمد الماتريدي، عن الإمامين: الشيخ أبي نصرأحمد العياضي وأبي بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني، عن الإمام أبي سليمان موسى الجوزجاني، عن الإمامين أبي يوسف يعقوب الأنصاري ومحمد بن الحسن الشيباني ح وأيضا عن الإمامين: الفقيه نصير بن يحيى البلخي والشيخ الإمام محمد بن مقاتل الرازي، عن الإمامين: القاضي أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي وأبي مقاتل حفص بن مسلم السمرقندي وهم عن إمام الأئمة أبي حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين. **تمت ولله الحمد**